مرحلة النشأة

لقد كان لتطور الحياة أثره الواضح في تطوير تفسير القرآن الكريم فلو تأملنا تاريخ التفسير لامكننا تحديد هذه المرحلة ابتداء من نزول القرآن الكريم على قلب نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وامر الله سبحانه وتعالى له بأن يبينه للناس بقوله تعالى: {وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}، وقوله: {وما أنزلنا اليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يوقنون}، وانتهاء بعصر تابعي التابعين.

فبمقتضى هذا التكليف الإلهي الذي تضمنته هاتان الآيتان استجاب الرسول لنداء ربه، وشرع يوضح أحكام القرآن للناس وبهذا يعد الرسول أول مفسر للكتاب الكريم، وعلى يديه الكريمتين بدأت نشأة التفسير.

ولما كان كثير من أفراد المجتمع الذي نزل فيه القرآن سلاطين البلاغة وأرباب الفصاحة، وأمراء البيان لما أوتوه من ضروب الحكمة وأسرار البلاغة، كانت أساليبهم تزخر بالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية والإيجاز والأطناب، وكان بلغاؤهم وفصحاؤهم ظاهر القرآن ويعرفون كثيرا من أحكامه، ويدركون إعجازه بمجرد التأمل والنظر.

أما سبر أعماق القرآن وفهم دقائقه بحيث لا يغرب عنهم شيء من ألفاظه ومعانيه ولا يند عن إفهامهم إدراك أسراره ومراميه، فهذا امر غير ميسور لكل منهم على الرغم من نزول القرآن بلسانهم، وجريه على أساليب كلامهم اذ كان في أعلى درجة من البلاغة سمحت لمفكريهم أن يتبادروا في فهمه، ويتسابقوا في إدراك معانيه، ومع ذلك كله فقد استحال عليهم فهم غرائبه، ومعرفة متشابهه فضلا عن الإلمام به جملة وتفصيلا.

وقد بين ابن قتيبة هذه الحقيقة قائلا: ان العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل ان بعضها يفضل في ذلك على بعض، ولعل ابن خلدون كان مبالغا حين قال في مقدمته في مطلع كلامه عن التفسير ان القرآن أنزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه.

ومما يؤيد اختلاف العرب في فهم القرآن أيضا قول مسروق (رضي الله عنه): ((جالست أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فوجدتهم كالأخاذ

فأخاذ يروى الرجل، والأخاذ يروى الرجلين والأخاذ يروى العشرة والأخاذ لو نزل به أهل الأرض لاصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الأخاذ))

وعلى الرغم من فهم معظم العرب لظاهر القرآن لنزوله بلسان عربي مبين إلا أن ما يخفى عليهم كانوا بحادة ماسة إلى من يفسره لهم ويوضح الفاظه الغريبة ويقرب معانيه البعيدة إلى أذهانهم، ومن البديهي أن يكون الرسول الذي اصطفاه الله أمينا على وحيه أول مفسر لكتابه، فكان إذا أشكل عليهم معنى من معاني القرآن لجئوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيبينه لهم بفطرته الصافية.

وقد اختلف العلماء في المقدار الذي فسره النبي (صلى الله عليه وسلم) من القرآن لأصحابه، فذهب بعضهم إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم الفاظه وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية.

وذهب آخرون إلى انه لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل وعلى رأسهم الخوبي والسيوطي.

والواقع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا وفسر من القرآن ما القرآن ما احتاج اليه المسلمون من أمور الحلال والحرام لان القرآن يشتمل على أحكام لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بالسنة ولان فيه تشريعات لا يقدم على توضيحها إلا هو (صلى الله عليه وسلم) كما أن في القرآن عموميات كثيرة تحتاج إلى تخصيص.

فكان (صلى الله عليه وسلم) يخصص العام ويفصل المجمل، ويقيد المطلق ويوضح المشكل كما بيّنَ كثيراً من مجازات القرآن وتشبيهاته وكناياته والألفاظ التي استعملت في معنى إسلامي ما كان يعهده العرب وان كان متصلا بعهودهم فيها، فلابد إذن من توقيف على معناها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وفضلا عن هذا كله، فقد كان القدوة الطيبة في السلوك الإنساني، والأسوة الحسنة في التطبيق العلمي لأوامر القرآن ونواهيه والالتزام بأحكامه، فهو إذن لم يفسر القرآن كله كما ادعى ابن تيمية، ولا القليل جدا، كما ادعى الخوبي والسيوطي وبهذا يكون الرسول قد فسر الكثير من آيات القرآن

الكريم، ولا بأس من الاجتزاء بصور أخرى من تفسيره غير التي سبق ذكرها لاعتباره (صلى الله عليه وسلم) المفسر الأول الذي قامت مرحلة التكوين على يديه فمن ذلك ما يأتي:

١-تفصيله للمجمل:

لقد أمر الله بالصلاة في كثير من الآيات كقوله تعالى: {أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين}، من غير ان يبين كيفية الصلاة وتحديد أركانها وعدد ركعاتها فقال (صلى الله عليه وسلم) في تفسيره للفظ الصلاة المجمل: (صلوا كما رأيتموني أصلي).

وكذلك الشأن في الحج الوارد من قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين} من غير ان يبين الله تعالى كيفية الحج وبيان أركانه ومناسكه فقال (صلى الله عليه وسلم) في تفسير ذلك: (خذوا عني مناسككم).

٢-تقييده للمطلق:

لقد بين الله من يحرم التزويج بهن من الأقارب بقوله تعالى: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة}، ثم أطلق سبحانه التزويج بمن عدا المحرمات بقوله: {وأحل لكم ما وراء ذلكم}، فقال (صلى الله عليه وسلم) مقيدا هذا الاطلاق: (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا ابنة أخيها ولا على ابنة أختها فأنكم ان فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم). وبقوله (صلى الله عليه وسلم): (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب).

٣-تخصيصه للعام.

لقد أوصى الله بان يرث الأولاد الآباء والأمهات، بقوله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين}، فخصص (صلى الله عليه وسلم) العموم الوارد في هذه الآية بقوله: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه

صدقه)، وبقوله: (ليس للقاتل ميراث)، وبقوله أيضا: (لا يتوارث أهل ملتين شتى).

٤-تبيينه للغريب:

قال تعالى: {التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين}.

فقد روى عن أبي هريرة انه (صلى الله عليه وسلم) قال: (ان السائحون هم الصائمون).

٥-توضيحه للمشكل:

ومن ذلك ما قاله أبو بكر للرسول (صلى الله عليه وسلم): كيف الصلاح بعد هذه الآية: {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به}، فكل سوء عملنا جزينا به؟ فيقول رسول الله غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك الألواء؟ فهو ما تجزون به.

ومن أمثلته أيضا جوابه الكريم لعدي بن حاتم حين سأله عن الخيط الأبيض والأسود في قوله تعالى: {فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}، أهما الخيطان المعروفان؟ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): هما سواد الليل وبياض النهار منتقلاً بالمعنى من الحقيقة إلى المجاز.

٦-تفسيره البياني:

ومن أمثلة تفسيره قوله تعالى: {كأمثال اللؤلؤ المكنون}، بقوله: صفاؤهن كصفاء الدر الذي لم تمسه الأيدي.

٧-تفسيره لالفاظ قرآنية استعملت في معنى إسلامي:

ومن ذلك لفظ القنوت الذي كان يفسره العرب بانه الخشوع ولكن الرسول جعل من معانيه السكوت: فقد روى عن ابن مسعود انه قال: أتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي فسلمت عليه، فلم يرد السلام فلما قضى

الصلاة قال: (لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا انا امرنا أن نقوم لله قانتين: لا نتكلم في الصلاة).

هذه هي معظم أساليب تفسير القرآن بالسنة النبوية.

أما الآيات المنوطة بنشأة الكون وأسرار الوجود والمتعلقة بالأنفس والأفاق والقواعد الاجتماعية فلم يفسرها لحكمة ربانية هي توجيه الفكر والنظر إلى ما أودعه الله سبحانه في هذا الكون الفسيح من أسرار وسنن من ناحية، ولكي تتطور حركة العقل الإنساني، وتتفتح أمامه أبواب التقدم العلمي في كل زمان ومكان من ناحية ثانية، ولفسح المجال للأجيال المقبلة لكي تنال الإسهام في خدمة القرآن الكريم ولا سيما في هذا العصر المسمى بعصر الذرة او الطاقة الذرية للدلالة على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم من ناحية ثالثة.

هكذا بدأ التفسير مقترناً بنزول القرآن الكريم، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أول مفسر له يبين للناس معاني القرآن ويوضح لهم ما عجزوا عن إدراك هاو خفي عليهم فهمه.

المادة : علم التفسير

المرحلة : الثانية

استاذ المادة : أ.م.د. حقي اسماعيل فياض